﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾

[يوسف: 83 - 84]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين اعتذارِ الإخوةِ، وردِّ الأبِ الصّالحِ عليهم، بحذْسِه المَوصولِ بالله

لمّا ذكرَ في الآياتِ السّابقةِ رجوعَهم إلى أبيهم وإخبارَهم إيّاه بما جرَى مِن حبْسِ أخيهم في مِصر، لوِجدانهم صُواعَ المَلِك في متاعِه، أخبر هاهنا بما ردَّ به عليهم، وفِعلِه تُجاه ما فاجَؤوه به.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾: من (أسف) وهو أصلٌ يدلُّ على الفَوْتِ والتّلَهُّفِ وما أشْبهَ ذلك مِنَ الغضَبِ والحُزْن؛ لكونِ كلَيْهما لا يكونُ إلّا عن فواتٍ وتلهُّفٍ[1]. و(الأسَفُ) هو الغضبُ والحُزْنُ معًا، ويُقالُ لكلِّ واحدٍ على انفراده، وحقيقتُه: ثَوَرانُ دَمِ القلْبِ شهوةَ الانتقام، فمتى كان ذلك على مَن يَقْدِر عليه انتشرَ فصارَ غضَبًا، وإنْ كان ذلك على مَن لا يَقْدِر عليه انقبَضَ فصار حُزْنًا[2]. والمرادُ بالأسَف في قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾: الحزنُ الشّديدُ؛ لأنّه لا يملِك معه غيرَه، والغضبُ موقِفُ القادر[3]. وتركيبُ ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ نداءٌ مجازيٌّ بمعنى التّحسّرِ، كأنّه قيل: يا أشدَّ الحُزْنِ هذا أوانُك فاحضُرْ[4]. والمُنادَى وهو (أسفى) مضافٌ إلى ياء المُتكلّمِ المقلوبة ألِفًا، لأنّها أمدُّ في الصّوت وأدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أسف).
(2) الرّاغب، المفردات: (أسف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أسف).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/196.

الفجيعة. ويجوزُ أنْ يكونَ التّركيبُ مِن باب النُّدْبَةِ وهو نداءُ المتوجَّعِ منه والمتفجَّع عليه، والمرادُ هنا: المتوجَّعُ منه وهو الأسفُ، والألفُ في آخره مزيدةٌ لتأكيد التّفجُّع والتّوجُّع[1].

2) ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾: الأبيضُ: لونٌ مِنَ الألوان، وهو ضِدُّ الأسْوَد، ويقال ابيضَّ الشّيءُ: إذا لَحِقَه اللّونُ الأبيضُ، تشَرَّبَ به أو غَلَبَ عليه[2]. وتركيبُ ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ معناه أنّ سَوادَ العينِ اعتَراهُ بياضٌ، وهو كنايةٌ عن إصابة العين بآفةٍ تحجُبُها عنِ الإبصار لسبَبٍ كاستيلاء الحزنِ الشّديدِ والبكاءِ المتواصِلِ، جُزئيًّا بضعْفِ البصر، أوكلّيًّا بذهابِ البصر[3].

3) ﴿كَظِيمٌ﴾: من (كظم) وهو أصلٌ يدلُّ على الإمساكِ والجمْعِ للشّيء. ومنه (الكَظْم) وهو اجتراعُ الغيظ والإمساكُ عن إبدائِه، وكأنّ الكاظمَ يحبِسُه في جوفِه. و(الكظْم) - أيضًا: مَخْرَجُ النَّفَس، يقال أخَذَ بكظْمِه، وقياسُه على الإمساك والجمْعِ للشّيء كذلك؛ لأنّه كأنّه منع نَفَسَه أن يخرجَ، فكتمَه في جَوْفِه وجَمَعَه إلى نفْسِه. والمرادُ هنا بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: حزينٌ حزْنًا بالِغًا لا يُبْدِي التَّذَمُّرَ منه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ارتيابُ يعقوبَ في أقاويلِ أبنائِه، ودُعاؤه للهِ في حزنٍ وحسْرةٍ

قال أبوهم لهم - بعدما جاؤوه مِن غيرِ أخيهم وأخْبَروه بفقْدِه وحبْسِه: ليس الأمْرُ كما نَقَلْتُم، بلِ الحقيقةُ أنّه زيّنتْ لكم أنفسُكم أمْرًا أمَرَتْكم به وسهّلَتْه لكم، كما زيّنتْ لكم من قبلُ وحسّنَتْ لكم ما اقترفْتُموه في حقّ يوسفَ، فلله عليَّ صبْرٌ جميلٌ أولَى بي وأجْدرُ، عسَاه سُبحانه أنْ يكافِئَني على صبْري ويردَّهم إليّ جميعًا: يوسفَ

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 6/545.
(2) الرّاغب، المفردات: (بيض).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/174.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).

وبنيامين وابْنَه الكبيرَ، فهو سُبحانه عليمٌ بمواقعِهم وأحوالِهم، ومطّلِعٌ عليكم وعليّ، وحكيمٌ يُهيِّئُ الأسبابَ بحكمةٍ وتدبيرٍ وترتيبٍ مُحكَمٍ، فيحكمُ ما يريدُ ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، فالتّفويضُ إليه والتّوكّلُ عليه. وتولّى يعقوبُ عليه السلام عنهم، وانصرفَ مُتَّجِهًا إلى ربِّه منفرِدًا، فغَلَبَهُ الحنينُ، فقال متفجِّعًا ومتوجِّعًا أو مشتاقًا مُتلهِّفًا: يا أسفي وألمِي وإشفاقي على يوسفَ! ولِكثرةِ بكائِه واستيلاءِ حُزْنِه عليه، ابيضّتْ عيناه بذهابِ سوادِهما، فهو المَليءُ قلبُه حزنًا، ولكنّه شديدُ الكتمانِ له[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآيةِ عن سابقتِها:

جملةُ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنّه قيل: فماذا كان صنيعُ أبيهم حين عادوا وأخْبَروه بخبَرِ كبيرِهم وأخيهم الصّغيرِ؟ فأجيبَ بالآية، وجملةُ الاستئنافِ البيانيِّ تُفصلُ ولا توصَل بالعاطفِ[2].

رحمةُ الأبِ بأبنائِه، غريزةٌ مُستَبِدّةٌ، وبها يكونُ العطْفُ والإشفاقُ

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في السّياقِ:

جملةُ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، جوابٌ عن محذوفٍ تقديرُه: فلمّا رجَعوا إلى أبيهم وأبْلَغوه بقول كبيرِهم، قال لهم: بل سوّلت لكم أنفسُكم أمرًا. فحُذِفَ ذلك إيجازًا واختصارًا لغرضَيْن: **الأوّلُ**: لوضوحِه وعدمِ خفائِه، فإنّه لا يلتبِسُ على أحدٍ أنّ قول يعقوبَ عليه السلام لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ لا يكونُ إلّا بحضورِهم عنده ورجوعِهم إليه، وامتثالِهم لأخيهم بإبلاغِ ما حمّلَهم إيّاه لأبيهم[3].

تـرْكُ المُزاحمةِ في الأقـوالِ والأفعالِ، جُزءٌ منَ الحكمةِ

(1) مجمع الملك فهد، التفسير الميسّر: 1/245.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/301، والبقاعيّ، نظم الدرر: 10/194، وصافي، الجدول: 13/48.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/37.

معنَى الحرفِ ﴿بَلْ﴾، في سياق الآيةِ:

حـذفُ ما يُفهمُ حذْفُه، دِقَّةٌ في تخيُّرِ الخطابِ مُفيدةٌ

﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ إضرابٌ عن مَنفيٍّ مُقدَّرٍ، والمعنَى: ليس الأمرُ كما ذكرْتُم، بل سوّلتْ لكم أنفسُكم أمرًا، فالمحذوفُ الذي وقعَ الإضرابُ عنه هو تفريعٌ عمّا تضمّنَه كلامُهم له من ادّعاءِ البراءةِ عن ملابسةِ ما يضرُّ بأخيهم، وأنّ ما نزلَ بأخيهم من حجْزِ العزيز له ليس من جِهتِهم ولا دخْلَ لهم فيه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ ﴿سَوَّلَتْ﴾:

التّسْويلُ مَصْيدةُ النَّفْسِ لصاحبِها، وهو مِن غلبَةِ الهوَى عليه

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بمادّة التّسويلِ في قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ليدلَّ على معنى إعطاءِ النَّفْسِ سُؤْلَها الباطِلَ بتحسينِه وتصويرِه حقًّا، ومن هنا قالوا: إنّ التّسويلَ هو تزيينُ الشَّيءِ على غير حقيقتِه، بحيث يَسوغُ للنّفْسِ ارتكابُه. فدلَّ لفظُ التّسويل في الآيةِ على ثلاثةِ معانٍ لها مَدخَلٌ بواقعِ القِصّة: الحِرصُ على إنفاذِ شيءٍ غيرِ حقٍّ، فيقعُ تسويلُه في النّفْس من وجهَين: **الأوّل**: بسؤالِه وطلَبِه ورجاءِ تحقيقِه، ولذا قالوا السّؤْلُ مِنَ السُّؤلِ مهموزِ الواو، وهو السّؤالُ. والثّاني: تسويلُ الوجوهِ المُنْكَرةِ لهذا الشّيء بتعديلِها وتصويبِها وتخييلِ أحقّيّتِها للنّفْس، فالتّسويلُ إذن هو تعديلُ الشّيء وإخفاءُ وجْه الباطلِ فيه، ومنه: السَّويلُ، أي: العَديلُ، وهو النّظيرُ المُوازِنُ الذي تَعدِلُ به الخلَلَ فيما يُقابِلُه. فكذلك الباطلُ إذا حاك في النّفْس ألحّتْ في سؤالِه ثمّ سوّلَتْه بتعديلِه وتزيينِه، فكأنّ الهمزةَ في السّؤْل تعبّرُ عن انضغاطِ النّفسِ بإلحاحِ المسألةِ فيما يشتملُ على حرجٍ وشُبهةٍ، فإذا عدّلَتْه وزيّنَته تخفّفَ فاسترخَتِ النّفْسُ بعد انضغاطِها، فطُرحَتِ الهمزةُ كذلك من اللّفظ فصار السّوْلُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/313، والآلوسي، روح المعاني: 7/38.

غيرَ مهموزٍ للإشارة إلى ذلك، فلتصويرِ تلك المراحلِ في النّفسِ عبّرَ بلفظِ ﴿سَوَّلَتْ﴾[1].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ (التّسويل):

تصويرُ الأنفُسِ بمنزلةِ الإنسانِ الّذي يُحسِّنُ فعْلَ القبيحِ، منَ البيانِ الفصيحِ

جاء في تلخيص البيان: "وهذه استعارةٌ، وحقيقةُ التّسويلِ تزيينُ الإنسان لغيرِه أمرًا غيرَ جميلٍ، جعل سُبحانه أنفسَهم - لمّا قويَ فيها الإقدامُ على ذلك الأمرِ المذمومِ - بمنزلةِ الغيرِ الذي يُحسّنُ لهم فعْلَ القبيحِ، ويحملُهم على ركوبِ العظيمِ"[2].

دَلالةُ اللّامِ في شبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾:

سُوءُ الإنسانِ راجعٌ على نفْسِه، ولو توهّمَ في السّوءِ خَيرًا له

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ للاختصاصِ وتعليلِ المنفعةِ، أي: سوّلتْ لِأجْلِ منفعتِكم، وتحقيقِ مَأْرَبِكُم، ولأمْرٍ يَخصُّكم وحدَكم.

نُكتةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾ على الفاعل:

تقديمُ الذّواتِ في النّظْمِ، لكونِها هي الآخِذةُ المُنتفِعةُ

تقديمُ شبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾؛ للاختصاصِ وتأكيدِ إسناد التّسويلِ إليهم، وهو يُصوّرُ الأثَرَةَ والطّبْعَ الرّديءَ، بدلالتِه على الانحيازِ للذّات بالشّطَطِ لا بالرَّشَدِ، فقدّمَ ذواتَهم بتقديمِ المتعلَّقِ المُشتمِلِ على ضميرهم، لتصوير وازعِ الحرْصِ على تلك الذّواتِ، فلمّا قدّموا أمانِيَها على ما سِواها واقعًا، تقدّمَ ما يدلُّ عليها نظْمًا.

وجْهُ نِسبةِ التّسويلِ إلى الأنفسِ:

الأنفسُ مركزُ قيادةِ سُلوكيّاتِ الإنسانِ، وهي مَعقِدُ فلاحِه أو خُسرانِه

أضاف التّسويلَ الى الأنفُس؛ لكونِها الجانبَ المُحرّكَ والمُوجِّهَ لسُلوكيات الإنسانِ، وأفكارِه، ونزواتِه، وأخلاقِه، وانفعالاتِه، وتوجّهاتِه خيرًا أم شرًّا، ونسبتُه إليهم مُجتمِعين دليلُ تمالُئِهم عليه، واشتراكِهم جميعًا فيه.

(1) مقاييس اللّغة، وابن فارس، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سول).

(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/170.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أَمۡرًاۖ﴾، في السّياق:

الأمْـرُ هو الّـذي من شأنِه أن تأمُرَ النّفْسُ به

تنكيرُ كلمةِ ﴿أَمۡرًاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ﴾، إمّا للتّهويل والتّفظيعِ، أي: أمرًا فظيعًا عظيمًا في نَكَارتِه، وإمّا للإبهامِ، أي: أمرًا لا يُحيطُ بعلمِه إلا هو سُبحانه، وليس بين الإبهام والتّهويلِ تعارُضٌ، بلِ الإبهامُ مَدعاةٌ للتّهويل[1].

معنَى الفاءِ في لفظِ ﴿فَصَبۡرٞ﴾:

إتْباعُ قِلّة الحيلةِ بالـصّبرِ، يُـؤذِنُ بالفرَجِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ فصيحةٌ عاطفةٌ مدخولَها على مُقدَّرٍ، والمعنى: سوّلتْ لكم أنفسُكم أمرًا، فإنْ كان ذلك كذلك فصبرٌ جميل، أو فبسببِ ذلك التّسويلِ فصبْرٌ منّي جميلٌ، والفاء تفريعٌ بالمعلولِ بعد العِلّة، فالصّبرُ الجميلُ عِلّتُه التّسويلُ، وهي تفيدُ أيضًا سرعةَ التّعقيبِ بالصّبر والتّلبُّسِ به بعدَ انكشافِ تسويلِهم له[2]، فالصّبرُ من طبائعِ أهلِ العزائم، المتوكّلين على ربِّهم.

المَوقعُ النّحويُّ للَفظِ ﴿فَصَبۡرٞ﴾:

سـوّلـتْ لـهـم أنفسُهم أمـرًا، وسوّلتْ لأبيهم صبْرًا

قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ نَكرةٌ موصوفةٌ، فيجوزُ أن تكونَ مبتدأً لخبرٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: فصبرٌ جميلٌ، أولَى بي أو أمْثَلُ بي، أو مِنّي، أي: كائنٌ مِن نفْسي. ويجوزُ أنْ تكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: أمري، أو شأني، أو صبْري صبْرٌ جميلٌ، وهذا هو الأليقُ أنْ تكون النّكرةُ خبَرًا[3].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿فَصَبۡرٞ﴾:

الـصّبرُ مِـقـدارُه عـظـيـمٌ، ولـو قصُرَ أمَدُه

تنكيرُ الصّبرِ في جملةِ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ لتفخيم الصّبرِ، والمبالغةِ في شأنِه، وإعظامِ قدْرِه، ويصحُّ إجراؤُه على معنى الإبهامِ؛ لأنّه لا يُعرفُ مِقدارُه، وكونُه من نبيٍّ يجعلُ التّنوينَ في الصّبر دالًّا على الكمالِ، أي: صبْرٌ كاملٌ ثقيلٌ، لكنّه جميلٌ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/38.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/32.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/271.

دَلالةُ وصْفِ الصّبرِ، بلفْظِ ﴿جَمِيلٌ﴾:

الصّبرُ لا يَسْهُلُ على النّفْسِ إلّا إذا كان جَميلًا

وُصِفَ الصّبرُ بأنّه جميلٌ، في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وهذا الوصفُ جعلَ التّركيبَ منَ الأمثالِ السّائرةِ التي تَلُوكُها الألْسِنَةُ، فتُجْريها مَجرى الحِكَم، وتُرَدِّدُها ترديدَ النّاصِحِ بها، والحاضِّ عليها، فتُقالُ خبَرًا، والمقصودُ إنشاءً وأمْرًا، كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: 5]، لكنّ صورةَ الخبَرِ في هذا التّركيبِ أخَفُّ وأسرعُ في التّداولِ المِثاليِّ، والإلقاءِ الحِكَميِّ، ويكأنّ الشّيءَ الصّعبَ إذا وُصِفَ بالجمال هانَ على النّفْسِ وجرَى عليها كما تَجري نفْحاتُ الجمالِ على صفحةِ القلْبِ نَسيمًا عابِرًا يَشْرحُ ولا يَجْرَحُ، فهكذا الصّبرُ إذا كان جميلًا! "فمعنى وصْفِه بالجَمالِ أنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَكْوى إلى بَشَرٍ، ولا ضَجَرٌ بِقَضاءِ اللّه تَعالى"[1].

نُكتةُ فصْلِ قولِه: ﴿عَسَى ٱللَّـهُ﴾ عمّا قبلَها:

انتظارُ الفَرجِ ورجاؤُه بعدَ الصّبرِ، من عزائمِ الإيمانِ

جملةُ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ استئنافيّةٌ في حيّزِ القولِ، أي: قال بل سوّلتْ، ثمّ قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾[2]، وبلاغةُ فصْلِ جملةِ الرّجاءِ وعدمِ عطْفِها على ما قبلَها من مَقولِ القولِ، للدّلالةِ على معنى انصرافِه عنهم وانفرادِه بالتّوجّهِ إلى اللّه في رجائِه، كمن ينفضُ يدَه من أفعالِ الخلْقِ فيجعلُ حيلَتَهُ إلى اللّه وباللّه، فاستأنَفَ لفظًا كما انقطعَ عنهم معنىً.

معنَى لفظِ ﴿عَسَى﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

المؤمنُ يَرجو اللهَ مُوقِنًا بإجابتِه

﴿عَسَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ فعلٌ ماضٍ جامدٌ ناقصٌ، وهو مِن أفعالِ المُقاربةِ في الرّجاء التي تدلُّ على الطمعِ والإشفاقِ والرّجاء في قُربِ حصولِ الشّيء، ولذا لم يقل: لعلّ اللّه أنْ يأتيَني بهم، للدّلالةِ على معنى القُربِ لِما يؤمِّلُه[3].

(1) ابن عطّية، المحرّر الوجيز: 3/271.
(2) صافي، الجدول: 13/48.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لعل)، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/372.

إيثارُ الفعْلِ ﴿يَأْتِيَنِي﴾، دونَ (يجيئني):

دعـــاءُ الـلـه بأوسعِ ما يُمكنُ مِنَ العطاء عندَ البلاءِ

التّعبيرُ بالإتيان في قولِه تعالى: ﴿يَأْتِيَنِي﴾ للدّلالةِ على المجيءِ السّهلِ، المتحقِّقِ بوصْفِه مجيئًا بسهولةٍ، ويقال في الخير وفي الشّر[1]، فضلًا عن كونِ دلالةِ الإتيان على القصد - بوصْفه " قد يقال باعتبار القصْدِ وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتبارًا بالحصولِ"[2] - تناسبُ معنى الطّمعِ والإشفاقِ والرّجاء في قُرب حصولِ الشّيء الّتي يؤدّيها الفعلُ (عسى).

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَأْتِيَنِي﴾، وإسنادِ الضّميرِ إليه:

دعـــاءُ الـلـه بأوسعِ ما يمكنُ مِـنَ الـعـطـاءِ، عندَ البلاءِ، فرَجٌ ورجاءٌ

جاء بصيغةِ المضارع للدّلالةِ على المستقبلِ الّذي ينتظرُه، وإسنادُ المضارع إلى ضميره، ولم يقل: (يأتي بهم) للدّلالةِ على أنّ المقصودَ بإتيانِهم حضورُهم عندَه في حياته، وللدّلالةِ على أنّ الغرضَ ليس أن يردَّهم الله، بل الغرَضُ أن يردَّهم الله إليه، وفيه ما لا يخفَى مِن أنّ الولد جُزءٌ من أبيه، وبَضعةٌ منه، فهو يبتغي ضمَّهم إليه.

معنَى الباء، في شبْهِ الجملةِ ﴿بِهِمْ﴾:

الاجتماعُ بالأهل والعيالِ، مِنَ النِّعَمِ المغفولِ عن شُكْرِها في كلِّ حالٍ

الباء في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ للتّعديةِ، وتدلُّ على معنى المصاحبةِ، أي: بصحبتِهم، مَجموعين.

دَلالةُ الموقعِ النّحويِّ للَفْظِ ﴿جَمِيعًا﴾:

الأبُ لا يفرّطُ بواحدٍ مِن أبنائِه، مهما كانتِ الظُّروفُ، أوِ الصُّروفُ

﴿جَمِيعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ حالٌ من ضمير الجمْعِ في ﴿بِهِمْ﴾[3]، وإرادةُ الجميعِ دلالةُ حُنوِّ الأبِ، وعدمِ التّفريطِ بواحدٍ مِن أولادِه.

المُتشابهُ اللفظيُّ في ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾:

تكّرر قولُ أبيهم لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) صافي، الجدول: 13/48.

الجنايةُ تستَتْبِعُ وراءَها جِناياتٍ

جَمِيلٌ﴾ في واقعة يوسفَ لمّا أضاعوه، وفي واقعة أخيهم لمّا عادوا بدونِه، وفي الموضع الأوّلِ قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وفي الموضع الثاني قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾: والموازنةُ المعنويّةُ واللّفظيّةُ اتّفاقًا واختلافًا بين الموضعَيْن من وجوه:

الأوّلُ: أنّه أعاد الكلامَ بلفظِه هنا: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ تعريضًا بهم بما دبّروه قديمًا في أمر يوسفَ مِنَ الكذب والاحتيالِ، فذكّرهم بأنّه لولا التّسويلُ القديمُ في فِعلِهم بيوسفَ عليه السلام لم يقع هذا الأمرُ لبِنيامين[1]، فأخبر أنّ هذا مِن مُسْتَتْبَعاتِ الجنايةِ القديمةِ، فيأخذ حكْمَه في مسؤوليّتِهم عنه، وإن لم يكن يُطابقُه في الكذبِ والاحتيالِ.

الثّاني: أنّه قصدَ في الموضع الأوّلِ التّسويلَ بالكذب والاحتيالِ في شأن يوسفَ، وفي هذا الموضع التّسويلَ بالتّخييلِ والتّوهّمِ، على معنى: أنّه خُيِّل إليكم أنّه سارقٌ وما هو كذلك[2].

الثّالثُ: أنّ المرادَ بتسويلِهم هنا إخراجُ بِنيامين عن يعقوبَ عليه السلام، والمصيرُ به إلى مصرَ طلبًا للمنفعةِ، فعاد من ذلك شرٌّ وضررٌ، والإلحاحُ على أبيهم في إرسالِه معهم، ولم يعلَموا أنّ قضاءَ اللّه إنّما جاء على خلاف تقديرِهم وتسويلِهم[3].

الرّابعُ: أنّ المرادَ بالتّسويلِ هنا ما سهّلتْهُ لهم أنفسُهم مِن إفتاء العزيز بأخذِ السّارق بسرقتِه، وليس ذلك مِن دينِ الملك[4].

الخامسُ: أنّ الختْمَ في الموضع الأوّلِ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يتّفقُ في المعنى مع الختْمِ في الموضع الثاني بقوله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/195.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/495.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/495.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/38.

تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾، فكلاهما تعقيبٌ منه على فِعْلِهم بتفويضِ الأمرِ للّه والاستعانةِ به ورجائِه.

السّادسُ: أنّ كِلا الموضعَيْن في إضاعتِهم لأخٍ لهم، فالأوّلُ عندما أضاعوا يوسفَ، والثّاني عندما فقدوا بنيامين، فلا غَروَ أنْ جاء ردُّه عليهم في الموقفَين بنفْسِ الجملة ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًا﴾ لاتّفاق الموقفَيْن في معنى الفقْدِ والإضاعةِ فاتّفقا كذلك في اللّفظ.

السّابعُ: اختلف الختْمُ في الموضع الأوّلِ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18] عن الختْمِ في الموضع الثاني: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ في اللّفظ والتّركيب، للدّلالة على اختلاف المقامَيْن وتغايُرِ الموقفَين، ففي الأوّل: دعاءٌ ورجاءٌ واستعانةٌ باللّه مقرونةٌ بخطابهم في ﴿تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18] لاعتقادِه كذبَهم واحتيالَهم عليه في شأن يوسفَ، فسأل اللّه ردَّ احتيالِهم عنه وإعانتَه بالتّدبيرِ له. وفي الموضع الثاني: ختَمَ بالدّعاءِ والرّجاءِ والاستعانةِ باللّه مُجرَّدًا عن خطابِهم، لاعتقادِه بعدمِ كذبِهم، وللإيذان بعدمِ اتّهامِه لهم فيما نقلوه بشأن واقعةِ أخيهم.

نُكتةُ فصْلِ تذييل الآية:

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ استئنافيّةٌ تعليليّةٌ ولذلك فُصلت، كأنّه قيل: (يأتي اللّه بهم جميعًا لأنّه هو العليم الحكيم)، فعلّلَ رجاءَهُ بما له سُبحانه من كمال العِلمِ والحكمةِ، فكأنّه سأل اللّه بعلْمِه وحكمتِه أنْ يردَّهم إليه[1].

كلُّ مسألةٍ وإنْ عظُمَتْ، فهي على الله هيّنةٌ

غرَضُ تتابُعِ المُؤكِّداتِ، في فاصلة الآيةِ:

جملةُ الفاصلةِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ اكتنفتها مُؤكِّداتٌ عِدّةٌ: فصُدّرتْ بـ (إنّ) وبضميرِ الفصل بين المبتدأ والخبرِ، وتعريفُ

احتشادُ المؤكِّداتِ مع أسماءِ اللهِ، لترسيخِ مَعناها في النّفوسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/41.

طرفَي الإسناد، والجملةُ الاسميّةُ، ومجيءُ صفتَي العليم والحكيم، على مِثالِ المبالغة، والصّفةُ المشبّهةُ، على وزن (فعيل)، فحشْدُ هذه المؤكِّدات، لتأكيد مضمونِ ما بنى عليه رجاءَه، لكونِ ما رجاه يَستبعدُه مَن لا يقينَ له، لكونِ القياسِ عند أغلبِ النّاسِ واقعًا على حسبِ ما ألِفوه مِن ظاهر العاداتِ والأسبابِ، فكذلك غيابُ أبنائه عنه على تفاوُتِهم في أسبابِ كلٍّ منهم وتفاوُتِهم في مدّةِ غيابهم، هو مَظِنَّةُ ألّا يجتمعوا في رجوعِهم إليه كما لم يجتمعوا في تفرّقِهم وغيابِهم عنه، فالجمْعُ بينَهم جميعًا في ردِّهم إليه يقتضي الجمْعَ والتأليفَ بين الأسبابِ المتفرّقةِ التي كلُّ واحدٍ منها بعيدٌ عن الآخر بحيث لا تلتقي ولا تأتَلِفُ، وليس مُعتادًا على ذلك، في عموم تجاربِ النّاسِ، ولذا احتاجَ إلى هذه المؤكِّدات، لتنزيلِ من يسمعُه منزلةَ المتردّد، أو لتنزيلِ أبنائه منزلةَ المُرتابِ، أو اليائسِ في رجائه، لئلّا يَحملوا رجاءَهُ على أنّه من أزيزِ النّفْسِ المُنفعِلةِ، أو من رجْعِ الحنينِ البائسِ[1].

فائدةُ الإتيان بضميرِ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ في الفاصلةِ:

لا عليمَ ولا حكيمَ، على جهة التّمامِ والكمالِ، إلّا الله ذو الجلالِ

ضميرُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾[2]، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، تعظيمٌ لذاتِ الجليل سُبحانه، وفائدتُه: الحصرُ والتّوكيدُ، أي: لا عليمَ حكيمَ على جهة الكمالِ إلّا هو، فالقصرُ بهذا المعنى ادّعائيٌّ، وكلّ علمٍ وحكمةٍ في الخلْق، فهي من آثار عِلمِه وحكمتِه، فالقصرُ على هذا الاعتبارِ حقيقيٌّ، ويفيدُ التّوكيدَ الكَمَاليَّ، فلِكمالِه سُبحانه في هاتين الصّفتَين، فكأنّه هو المختصُّ بهما دون غيرِه، أي هو العليمُ الحكيمُ حقًّا وقطعًا مؤكّدًا، فالتّوكيدُ لإفادة الكمالِ، بقرينة تعريفِ طرفَي الإسناد، والّذي يفيدُ أيضًا تقريرَ المضمون، وتأكيدَ نسبةِ المُسنَدِ إلى المسنَدِ إليه، ويفيدُ القصْرَ، فهذه الجملةُ

(1) صافي، الجدول: 13/47.

(2) ويصحّ إعرابه مبتدأ وما بعده خبر له، والجملة من المبتدأ وخبره في محل رفع خبر (إنّ).

محشودةٌ بالتّأكيداتِ الحاصِرةِ، وهذا مِن بديع الختْمِ بما يناسبُ عجيبَ مضمونِ الرّجاءِ في المَطلعِ[1].

نُكتةُ التّذْييلِ بالاسمَيْن ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

كـلُّ أقـدارِ الله جاريـةٌ بالعِلْمِ والـحِـكـمـةِ، في تـدبـيرِ الـخـلْـقِ والملَكوتِ

ذُيِّل خِتامُ الآيةِ بصفتَي العليمِ والحكيمِ، لملاحظةِ المَطلعِ ومناسبتِه، فهو العليمُ الذي لا تخفَى عليه مواقعُهم المتفرّقةُ، والحكيمُ القادرُ على إيجاد أسبابِ جمْعِهم بعد التّفرّقِ[2]، وهو العليمُ بالأسباب التي تُوَصِّلُ للغايات، فهو بالغٌ رجاءَه في الله بعِلْم الله، وهو الحكيمُ سُبحانه في ترتيب الأسبابِ بوضعِها في مواضعِها بإحكام التّدبيرِ، وإجرائِه بحكمةٍ بالغةٍ[3]، كما أنّ الختْمَ بهما إيذانٌ بتسليمِه للمقاديرِ التي تقعُ بعلمِ الله وحِكمتِه[4]، وفي ذلك نُكتةٌ جليلةٌ أيضًا: وهو أنّه أنيسٌ لهذه المقاديرِ؛ لأنّه ما دام وقوعُها جاريًا بالعلمِ والحكمةِ، فلا بدّ أنْ تقعَ على قدرِ رجائِه في الله في مطلعِ الآية، ففي الختْمِ إيذانٌ بالاستجابةِ.

نُكتةُ تقديمِ (العلمِ) على (الحكمةِ):

العِـلـمُ مُـقـدَّمُ الـحُـكْـمِ والحِكْمةِ، وبه حياةُ الأكـوانِ، ورُقيُّ الإنسانِ

قُدِّمَ العِلْمُ على الحكمةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، للدّلالةِ على أنّه يتصرّفُ في المعلوماتِ المُنْكَشِفَةِ بإنفاذِها على جهة الإحكامِ، والحُكْمِ، والحِكمة، تدبيرًا وتقديرًا، فتأخيرُ الحكيمِ، بعد العليمِ، لنفْيِ العبَثِ والعجْزِ أنْ يتطرّقَ إلى عِلْمِه سُبحانه، فتلك المعلوماتُ محجوزةٌ بالحكمةِ فلا تنخرِمُ بإفسادٍ أو آفةٍ.

تَوجيهُ العطْفِ في قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾:

إظهارُ الحاجاتِ لله، وكِتمانُها عنِ النّاسِ، من عزْمِ الأمورِ

جملةُ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/331، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/54، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/41.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/195.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/271.

لَـكُـمْ﴾، فانتقلَ بالعطفِ من حال الحِوارِ معهم إلى حال الإعراضِ عنهم، فالأُولَى حالُ اجتماعٍ، والثّانيةُ حالُ انفرادٍ[1].

إيثارُ التّعبيرِ بالتّولّي، في سياقِ الآيةِ:

عبّرَ بالتّولّي في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، ليدلَّ على الانصرافِ المتعمَّدِ عنهم، فالتّولّي هو الإعراضُ وتركُ القُرْبِ اختيارًا، ويكونُ بالباطن كما يكونُ بالظّاهر، والتّعبيرُ بالتّولّي هنا يفيدُ انصرافَه عنهم باطنًا وظاهرًا، واللّفظُ يُصوِّرُ حالةَ الاستيحاشِ منهم، والتّشاؤُمِ من أخبارِهم، وعدَمِ تصديقِهم[2].

الانـفـرادُ بالله أُنْـسٌ عـظـيـمٌ، وعطاءٌ كريمٌ

نُكتةُ عطْفِ ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾:

جملةُ: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ معطوفةٌ، على جملةِ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وبين الجملتَين مقابلةٌ معنويّةٌ لتضمُّنِهما معنى الضِّدَّين، فكأنّه قيل: أعرضَ عنهم وأقبَلَ على يوسفَ ﷺ، وكأنّ الإنسانَ إذا أعرضَ عن شيءٍ أقبلَ على ضِدّه، ففي التّركيبَين مقابلةٌ بين حالِ الإعراضِ وحالِ الإقبالِ. وجملةُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ فعلٌ، وجملةُ: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ قولٌ، فعطفَ ما قاله على ما فَعَلَه، وجملةُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ ألصقُ بالحال الظّاهرةِ، وجملةُ: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ ألصقُ بالحالِ الباطنةِ؛ لأنّ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ تحسُّرٌ، والتّحسّرُ مَوْرِدُه القلبُ والباطنُ قبلَ الظّاهرِ[3].

لـلـمـؤمـنِ حـالٌ سِـرٌّ مـع الـلـه، لا يُظهِرُها عندَ مُخالطةِ النّاسِ

مَجازاتُ النّداءِ وغرَضُه، في قوله: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾:

الأسفُ: أشدُّ الحزن، ونداءُ الأسَفِ مجازٌ منَ الاستعارةِ المكنيّةِ، حيث شبّهَ الأسفَ بالعاقل الذي يصلحُ نداؤه واستدعاؤه، بجامعِ قابليّةِ الحضورِ في كلٍّ، أوِ استعارةٌ تمثيليّةٌ بتشبيه حالِه في ندائِه

الـصّـبْرُ يُـصَـيِّرُ البلاءَ صاحبًا، ويُخفّفُ الآلامَ النّازلةَ

(1) صافي، الجدول: 13/49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/41.
(2) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(3) صافي، الجدول: 13/49.

للأسفِ لِوخْزِه له وإيلامِه لنفْسِه بحالٍ حاضرٍ مشهودٍ أمامَه يسمعُ فيناديه. وخروجُ النّداءِ عن معناه الحقيقيِّ وهو طلبُ الاستدعاءِ إلى التّحسّرِ واجترارِ الأسَى مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الإطلاقُ والتّقييدُ، فالنّداءُ مقيّدٌ بطلب إقبالِ العاقلِ فأُطلِقَ إلى استعمالٍ آخرَ. وفي نداءِ الأسفِ تعظيمُ حُزنِه على مفارقة يوسفَ[1].

نُكتةُ الاقتصارِ على التّأسّفِ على يوسفَ دون غيرِه:

الـقـلـوبُ بـيـدِ الرّحمنِ، يقلّبُها كيف يشاءُ

اقتصرَ على التأسّفِ على يوسفَ مع أنّه أقربُ عهدًا بفُقدان أخَوَيْه منه، وعهدُه بفُقدان يوسفَ قديمٌ، لوجوهٍ؛ **أحدها**: أنّه لا فقْدَ يَعدِلُ عنده فقْدَ يوسفَ، فكان فقْدُه عندَه هو كلُّ الفقْدِ، وهذا الوجْهُ يجعلُ قولَه: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من بابِ ذِكْرِ الأعلى عند حصولِ الأدنى، **والثّاني**: أنّ فقْدَ يوسفَ هو أصلُ نكْبَتِه التي انبنَى عليها فقْدُ أخَوَيْه، فلولا فقْدُ يوسفَ ما فَقَدَ أخوَيْه، والشّيء يُذكَرُ بأصلِ سبَبِه، وأساسِ حصولِه، وهذا يدلُّ على ما يُقابِلُهُ مِنْ أنّ إرجاعَ يوسفَ سيكون سببًا في إرجاعِ أخَوَيه، والاجتماعَ به سيكون سببًا في اجتماعهم كُلِّهم، وقد كان! **والثّالث**: أنّ فُقْدان يوسفَ عنده صار مِثالًا يُضرَبُ عندَه على كلّ فقْدٍ، فكلُّ مصيبةٍ تنالُه صار يَستدعي لها فُقْدانَ يوسفَ، فصار يتمثّلُ في كلّ نازلةٍ تنزِلُ به بعبارة: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لأنّ هذا التّركيبَ صار عنوانًا على كلِّ شِدَّةٍ تَجِدُّ له، وهذا الوجْهُ يجعلُ قولَه: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ كنايةً عن كلِّ حادثٍ يُصيبُه.

والرّابعُ: أنّه لمّا كانتِ القصّةُ في يوسفَ عليه السلام، وكان الغرَضُ متعلِّقًا به ذكرَ أسَفَه عليه دونَ أسَفِه على أخَوَيه[2]، ولكن هذا لا يَنفي أنّه قد تأسّفَ عليهما أيضًا، إذْ هما فلْذة كبِدِه كيوسفَ، ولكنْ صرّح بأسَفِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/496، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/403.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/42.

عليه وحدَه لانعقادِ السّورة عليه، ولأنّ الأسفَ عليه يستدعي الأسفَ على أخَوَيْهِ الآخَرَيْن، ويدلُّ عليه.

بَلاغةُ الجناسِ بين ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾، و﴿يُوسُفَ﴾:

أفصحُ الكلامِ ما جاء مَطْبوعًا خاليًا، من عمْدِيّةِ السَّبْكِ

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جناسُ إطلاقٍ بين لفظَيْ ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ و﴿يُوسُفَ﴾، وجناسُ الإطلاقِ أنْ يكونَ بين الكلمتَين مشابهةٌ لفظيّةٌ، وهي ما يُشبِهُ الاشتقاقَ وليس كذلك، فلا يَرجعان إلى أصلٍ واحدٍ، مع حصول المغايرةِ بين ركنَيِ التّجنيسِ في الحروفِ والحركاتِ، ولذا يُسمّى جناسَ إيهامِ الاشتقاقِ أو جناسَ المُقاربةِ أوِ المشابهةِ أوِ المغايرةِ[1]، وهو من مُحسّناتِ الفصاحةِ اللّفظيةِ، لكونِه واردًا على غير تكلُّفٍ وتعسّفٍ.

نُكتةُ عطْفِ ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾:

اجْتِرارُ الأسَى يذهبُ بالعافيةِ، ويملأُ النّفسَ بالحسراتِ

جملةُ ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾، معطوفةٌ على ما قبلَها، من جملة التَّولّي والتّحسّر: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾، وهذا من باب عطْفِ الحالِ على الحالِ، والقصّةِ على القصّةِ، كأنّه قيل: كان من أحواله التّولّي والتّحسّرُ، وابْيِضاضُ العين، وكان من قصّته كذا وكذا، ولا يلزمُ مِنَ العطفِ أنّ هذه الأحوالَ متعاقبةٌ؛ لأنّ العطفَ بالواو لا يفيدُ التّرتيبَ بين الجُمَل، ولذا هذه الأحوالُ قد تكونُ متقطّعةً في أزمانٍ مختلفةٍ، ويصحُّ أن تكون الواوُ في جملة: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ استئنافيّةً؛ لأنّ التّولّيَ والتّحسّرَ تصحُّ المُقاربةُ الزّمنيّةُ بينَهما في الزّمن بل ويصحُّ التّعاقُبُ بينهما، بحصول التّحسّرِ بعدَ التّولّي، وأمّا ابْيِضاضُ عينِه فيقتضي طولَ الزّمن بالحزنِ بغضِّ النّظرِ عن جملتَيِ التّولّي وقوْلِ الأسف، فاعتبارُ استئنافيّتِها أدلُّ على تفرّدِها في المضمون وبُعدِها في الزّمن وأدلُّ على معنَى الانفصالِ في المضمون، والانتقالِ للعبورِ الزّمنيِّ الطويلِ[2].

(1) ابن معصوم، أنوار الرّبيع في أنواع البديع، ص: 19، وإنعام فوال، المعجم المفصّل، ص: 571.
(2) صافي، الجدول: 13/49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/43.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾:

يـجـوزُ في حـقِّ الأنبياءِ الإصابةُ بـالمـرضِ، ولا تُـؤثّـرُ في تَـمـامِ بَشَريّتِهم

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، ابْيِضاضُ العينِ: هو تحوّلُها إلى حالِ البياضِ، وابْيِضاضُ العين كنايةٌ عن ثلاثةِ احتمالاتٍ:

الأوّلُ: أنّ ابْيِضاضَ العين كنايةٌ عن غلَبةِ البكاء، وعند غلبةِ البكاءِ يكثُر الماءُ في العَين فتصيرُ كأنّها ابيضّتْ من بياضِ الدّموعِ، فالتّعبيرُ عن كثرة البكاء ببياضِ العين مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المجاورةُ، فلمّا كان الدّمْعُ مُجاورًا للعين، عبّرَ عن بياض الدّموعِ ببياض العينِ، بإطلاقِ وصْفِ المُجاورِ على المُجاورِ له، ويكونُ في إسناد البياض للعين مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ البياض لدموعِ العينِ لا للعين، وأسندَه للعين مبالغةً في الدّلالة على استمرارِ بكائِه واستيلاء دموعِه على عيْنِه، بحيث صار كأنّ البياضَ لعينِه ذاتِها.

الثّاني: ابْيِضاضُ العين كنايةٌ عن ضعْفِ الإبصار، ولذلك قال: وابيضّتْ عيناه دونَ عميتْ عيناه، وحينئذٍ يكونُ ابْيِضاضُ العين على ظاهرِه، ويكونُ ضعفُ الإبصار مُسبَّبًا عن بياضها؛ لأنّ ابْيِضاضَها مؤْذِنٌ بانحجابٍ جزئيٍّ في الرّؤية، لا يعطّل العينَ بالكلّيّة، فالابْيِضاضُ بمثابة الغشاوةِ على جدار العين، فأطلقَ ابْيِضاضَ العين وأراد لازمَ معناه وهو ضعفُ الرّؤيةِ، مع إرادة التّنبيهِ على المعنى الأصليِّ وهو بياضُ العين.

الثّالثُ: ابْيِضاضُ العين كنايةٌ عنِ العَمى، وهو مبنيٌّ على أنّ الابْيِضاضَ غطّى سوادَ عينِه كلَّه، فانحجبتِ الرّؤيةُ بالكامل، وهذا محتمَلٌ، لكن لا يُصارُ إليه عند التّرجيح والاختيارِ؛ لأنّ خِلافَه مِنَ الوجهَين السّابقَيْن أحسنُ وأولَى، إذْ فيهما تنزيهٌ لنبيِّ اللّه عن آفةِ العَمَى، وما فيه تنزيهٌ أولى في الاختيارِ، وأولى النّاسِ بالتّنزيه - فيما يخصُّ البَشَرَ - الأنبياءُ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ. ولا يُقال:

إنّ قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ [يوسف: 96]، يُقابِل معنى أنّه كان قد عَمِي؛ لأنّ البصير هنا يصحُّ حملُها على كمال الإبصارِ، لا أصلِ الإبصار، فإنّ الحزنَ وكثرةَ البكاء يُعيقُ العينَ عن كمالِ الإبصار لا عن سلامتِه[1].

بَلاغةُ فنِّ التّدبيجِ، في قوله: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾:

كـنّـى بـالـلّـونِ الأبـيـضِ عـمّـا يـصـيـبُ الـعـينَ مِن أذًى بسببِ الحُزنِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ فنُّ التّدبيجِ؛ إذ ذكرَ اللّه تعالى اللّونَ الأبيضَ، ويُكنّى به عن بعضِ الأمراضِ التي تصيبُ العينَ بذهاب سوادِها عند الحُزنِ الشّديدِ[2].

معنَى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾:

الـحـزنُ قـاطِـعٌ لأسباب الحياةِ، مُنغّصٌ للمَلذّاتِ

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ سببيّةٌ، أي: بسببِ الحزنِ[3]. ولا غرابةَ فالحزنُ يؤثّرُ في المؤمنِ، حتى إنّه لا شيءَ أحبُّ إلى الشّيطانِ من حزنِ المؤمن.

معنَى (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡحُزۡنِ﴾ في السّياقِ:

الـحـزنُ شُـعبةٌ مـنَ الـبـلاءِ، وقِـطـعـةٌ مـنَ العذابِ

(ال) في كلمة ﴿ٱلۡحُزۡنِ﴾، هي الجنسيّةُ لتعريف الحقيقةِ والماهيةِ، أي: المرادُ حقيقةُ الحزنِ المعهودِ.

لفظُ ﴿ٱلۡحُزۡنِ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

البـكـاءُ يَـزوي الحزنَ ويَسْقيه، فيَزيدُه أو يُفَرِّجُه

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، على اعتبار أنّ ابْيِضاضَ العين هو مجازٌ عن غلَبَةِ البكاء، فلفظُ الحزنِ هنا على ظاهره فالمرادُ حقيقةُ الحزنِ، ويكونُ قد جمعَ بين السّببِ وسببِ السّبب، فإنّ غلبةَ البكاءِ هي بسبب سَطْوةِ الحزنِ. وعلى اعتبار أنّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/498، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/174، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/314، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/404، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/43.

(2) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/93، والتّدبيج: هو أن يذكر المُتكلّم ألوانًا، يقصد الكنايةَ بها، والتّوريةَ بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو نسيب أو غيرِ ذلك منَ الفنون.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/43.

ابْيِضاضَ العين كنايةٌ عن ضعْفِ الإبصارِ، فيكونُ المرادُ بالحزن المُسَبَّبِ عنه وهو كثرةُ البكاء التي تُفضي إلى تكدير سوادِ العين وتبدُّلِ لونِه وتفتيحِه حتى يصيرَ أبيضَ أو أقربَ إلى البياض، ويكونُ لفظُ ﴿ٱلْحُزْنِ﴾ مجازًا مرسلًا علاقتُه السّببيّةُ، فعبّرَ بلفظ السّببِ وهو الحزنُ، وأراد المسبّبَ عنه وهو كثرةُ بكائه، بقرينة ابْيِضاض العين. وعلى اعتبارِ أنّ ابْيِضاضَ العين هو عدمُ الإبصارِ بالكلّيّة، فالحزنُ هو المرادُ؛ لأنّ استيلاءَ الحزن قد يؤثّرُ في عمل الدّماغ، فيَتلفُ عصبُ العين، فتنقطعُ الرّؤيةُ تمامًا، ولو حصلَ ذلك من غير بكاءٍ[1].

دَلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾:

جملةُ: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾، والفاءُ للسّببيّةِ، أي: بسبَبِ الحزنِ هو كظيمٌ[2].

الأنبياءُ عليهم السلام، يَحزنون ويألَمون كسائرِ النّاسِ

نُكتةُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿كَظِيمٌ﴾، مادّةً وصيغةً:

التّعبيرُ بالكظْم يدلُّ على معنى الإمساكِ والجمْعِ، فكأنّ الحزينَ الأسيفَ يتجرّعُ الغيظَ والحزنَ فيُمسِكُ عن إبدائِه، وكأنّ الكاظمَ يجمّعُ ذلك في جوفه فيمتلئُ به. فالمادّةُ تدورُ حول جمْع الشّيءِ وحبْسِه والمنْعِ من إظهارِه. و﴿كَظِيمٌ﴾ صفةٌ مشبّهةٌ على وزن (فَعِيل)، إمّا بمعنى (فاعل) كـ(كاظِم)، كنحوِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]، فهو كاظِمُ الحزنِ لا يُظهِره بين النّاسِ، وإمّا بمعنى (اسم المفعول)، (مكظوم)، كنحوِ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: 48]، أي: كَظَمَه أبناؤه بالغمِّ بتفريطِهم في يوسفَ وأخيه، ووزانُ (فعيل) أبلغُ من (فاعل)، و(مفعول)، ولذا لم يقل: كاظم أو

يتفاوتُ النّاسُ في احتمالِ البلاءِ، على قدْرِ منازلِهم ومَقاماتِهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/39، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/404، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/43.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/196.

مكظوم، لدلالة (فعيل) على المعنَيَين، وإجراءُ اللّفظِ على المعنيَين (الفاعل والمفعول) أبلغُ من إيراده بأحدِهما فقط، فدلالةُ (فعيل) أوسعُ، ولكون الوصْفِ في فعيل أشدَّ منه في فاعل ومفعول، فمعنى الحدَثِ فيه أمْكَنُ، فيدلُّ على أنّ الوصفَ صار كالشّيء الثّابتِ أو كالطبيعةِ والسّجيّةِ المُلازمةِ لصاحبه، فـ (فعيل) في الصّفة المشبّهةِ تدلُّ على صفات النّفوسِ الملازمةِ لها سواء كان خِلْقَةً غريزيّةً، أو مكتسبةً صارت تُقاربُ لِلُزومها الخِلْقةَ والسّجيّة، ويدلُّ - أيضًا - على أنّه متّصِفٌ به بالفعل، بخلاف ما لو قال كاظمٌ أو مكظومٌ، فيحتملُ أنّ اتّصافَه بذلك واقعٌ في الحالِ أو سيقعُ في الاستقبال، وأنّه لم يكن متحقِّقًا به من قبلُ، فكانت صيغةُ (فعيل) أبلغَ لموافقة حالِه بالدّلالةِ على مُلازمته للحزْنِ أمَدًا طويلًا. ويصحُّ أن تكونَ ﴿كَظِيمٌ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، لإرادة معنى الكثرةِ، أي: كثيرُ الكظْم، وتكونُ الصّفة المشبّهةُ أدلَّ على الدّيمومةِ، أي: دائمُ الكظْم[1].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَظِيمٌ﴾:

(الكظيمُ) لفظٌ يدلُّ على احتباسِ للهمِّ، واحتسابٍ للأجْرِ

تنكيرُ ﴿كَظِيمٌ﴾ لإبهام الوصْفِ تهويلًا له، كأنه قال: كظيمٌ مُنْطَوٍ على ما لا يُقَادَرُ قَدْرُه ولا يُحصَى عددُه من ألوان الكظْم لانكتامه وعدمِ إظهاره، فهو كظيمٌ لا يحيط بمقدار أَلَمِه إلّا الله، ولذا قصرَ شَكواه على الله في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿كَظِيمٌ﴾:

على قذرِ الاحتساب يكونُ الأجرُ، ولا يَضيعُ أجرُ المُحسِنين

أصلُ ﴿كَظِيمٌ﴾ من كظْم القِربَةِ أو السِّقاء المليءِ بالماء بشَدِّ حبْلٍ على فَم السِّقاء، ليُربَط فلا يخرجُ منه الماءُ، أو من كظْم البعيرِ جِرَّتَه، والجِرَّةُ: ما يُخْرِجُه البعيرُ من بطنه ليَمضُغَه ثمّ يبتلعَه فيردَّه إلى جوفِه فيكظِمُه ولا يَلْفِظُه، وعليه: ففي الكلام استعارةٌ تصريحيّةٌ، حذفَ فيها المشبّهَ وصرّح بالمشبَّهِ به، فشبّهَ امتلاءَ قلبه

(1) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 55، ص: 84.

بالحزن على يوسفَ بامتلاء القربةِ بالماء، وشبّهَه في صبره وتركِه الشّكوى إلى غير اللّه، برابطٍ رُبطَ على فم السِّقاء المليءِ بالماء حتّى لا يخرجَ منها شيءٌ، وهذا هو معنى الكظْمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سوّلتْ) و(طوّعتْ):

التّسويلُ يقعُ فيما تلتذّ بفعْلِه النّفْسُ وتُحبُّه، والطَّوْعُ الانقيادُ للأمْر

السين والواو واللام (سول): أصلٌ يدلُّ على استرخاءٍ في شيءٍ، ومنه: تسويلُ النّفْسِ لصاحبِها أمْرًا، والتّسويلُ: التّزيينُ والتّحبيبُ والتّحسينُ، فكأنّ المَرءَ يسترخي لمطالبِ نفْسِه بتزيينِها وتحسينِها فيُجيبُها إلى ما سألتْهُ إيّاها، فالتّسويلُ هو تزيينٌ وتحسينٌ لِما سَألتْهُ النّفْسُ ورغِبَتْه. فيصحُّ على ذلك أنْ يكون أصلُ (سول) مهموزًا منَ السُّؤْل والسُّؤَالِ، ثمّ خُفِّفَتْ همزتُه في لفظ التّسويلِ، وكأنّ إبقاءَ الهمزة في السُّؤْل – وهو الحاجةُ الّتي تحرصُ عليها النفْسُ، فتسألُ تحقيقَها – دالٌّ على ثِقَلِ الرّغبةِ قبلَ سؤالِها وانضغاطِ النّفْس بها، فإذا أُرخِيَ لها بتحسينِ المطلوب وتزيينِه، وإعطائِها سؤْلَها، اسْتَرْخَتِ النّفْسُ وخفَّ حِمْلُها مِن ضغطِ رغبتِها بتحقيقِها واقترافِها، فأُزيلَتِ الهمزةُ تخفيفًا للّفظِ ليُطابِقَ خِفَّةَ المعنى الذي اشتمَل عليه[2].

والطَّوْع: أصلٌ يدلُّ على لِيُونَةٍ وانقيادٍ، وهو ضِدُّ الكَرْه، ومِنْهُ الطّواعِيَةُ والطّاعةُ: الانقيادُ للأمْر، ضِدُّ العصيانِ. ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: 30]، أي: انقادتْ له ولانَتْ فيما أرادَه مِن قتْلِ أخيه، فقتَلَ ونفْسُه مُختارةٌ غيرُ كارهةٍ ولا مُتَرَدِّدةٍ[3]. والفرقُ الدّقيقُ بين التّسويلِ والطّواعيةِ: أنّ التّسويلَ فيه معنى التّزْيينِ والتّحبيبِ، فيقعُ فيما تَلْتَذُّ به النّفْسُ وتحبُّه، أو تُلِحُّ

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كظم)، والآلوسي، روح المعاني: 7/39، وصافي، الجدول: 13/49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سول).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع).

فيه. وأمّا الطّوْعُ فلا يلزمُ أنْ يكونَ في المرغوب المحبوبِ، ولا عن إلحاحٍ. والطّوْعُ دالٌّ على معنى الاختيارِ وعدمِ الكراهيةِ، وليس هذا المعنى مُضمَّنًا في التّسويلِ. ومِن هنا اختيرَ التّسويلُ في لفظِ يعقوبَ ﷺ إشارةً إلى تزيين أنفُسِ أبنائه، وتلذّذِهم بصنيعِهم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»